الرؤية النقدية لأبي هلال العسكري
من خلال كتابه "ديوان المعاني"

منصف شلي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر.

❖❖❖❖❖

ملخص
تتناول هذه الدراسة الرؤية النقدية لأبي هلال العسكري، من خلال كتابه "ديوان المعاني" ونحاول الكشف عن أهم القضايا النقدية التي عالجها المؤلف في الكتاب، هذه الرؤية كانت بمثابة إضافة نوعية إلى التراث النقدي العربي.

Résumé
Cette étude traite de la vision critique d'Abi Hilal al Askari à travers son œuvre "diwan al maani" et tente de révéler les principales questions de critique que l'auteur à traitées dans le livre, cette vision fut un genre de contribution qualitative au patrimoine critique arabe.

.

❖❖❖❖❖

يزخر التراث العربي (الأدبي واللغوي) بنوع من الكتب التي تعرف بـ «كتب الأخبار الأدبية» أو «المنتخبات الأدبية» أو «كتب الاختيارات» ، حيث احتوت على كمية هائلة ومادة ضخمة من المعارف في شتى الاختصاصات، من شعر ونثر وأمثال وحكم وخطب ووصايا وتوقيعات وأخبار وقصص شتى، ومختلف أفانين القول وضروب الكلام.

و بالتالي يمكن أن نقول عن هذا النوع من التآليف، إنها كتب موسوعات أدبية خالصة، مثل كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ (ت255هـ)، و «الكامل في اللغة والأدب» للمبرد (ت285هـ) و «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي (ت328هـ) وغيرها من الكتب التي تدخل في هذا المجال.

إن الكتابة عن الأدب هي كتابة نقدية خالصة، من حيث التأريخ للمادة المعروضة، أو الحكم على المختارات الشعرية والنثرية، ولقد عبّر هذا النوع من التصنيف في تراثنا العربي وبما حمله من أفكار وأسس نقدية، عن رقي الأمة العربية وعن اكتهال لغتها وآدابها وحضارتها.

إنّ الناظر بتؤدة إلى هذه الموسوعات المعرفية أو الكشاكيل الأدبية يجدها قد حملت في طيّاتها مادة نقدية متنوّعة مسّت أهم القضايا النقدية التي عرفها التراث النقدي العربي، مثل قضية "اللفظ والمعنى" أو "الطبع والصنعة" أو "المبالغة والاعتدال" وقضية "السرقات الأدبية" وغيرها من القضايا الهامة في النقد العربي القديم، وعبّرت في الوقت ذاته عن الرؤية النقدية لمؤلفيها.

وباختصار يمكن القول إنّ كتب الأخبار الأدبية قد وضعت أسسًا نظرية وعلمية للنقد العربي، لِما اشتملت عليه من آراء نقدية وأحكام هائلة على المنتقيات الشعرية والنثرية المبثوثة في مظانها، وشكلّت حلقة معرفية نقدية فريدة في تاريخ التراث العربي.

لقد اتسمت الرؤية النقدية لأصحاب المنتخبات الأدبية بسمتين: الأولى: وهي المعيارية الموضوعية من خلال الحكم على المختارات المختلفة، أما الثانية: فهي تلك الانطباعية الذاتية التي ميّزت أصحاب هذا النوع من المصنفات، ويمكن أن نقول إنها استمرّت على الأقل حتى نهاية القرن السابع الهجري. ولا تعبّر النظرة الانطباعية بالضرورة عن سطحية الرؤية النقدية، فهي ممارسة نقدية عملية ذوقية تخصّ صاحبها الذي احتكم إلى ذوقه الشخصي، أو الذوق العام، فالذوق هو أساس الحكم الأدبي، والحكم الأدبي هو النقد عينه، وإنّ القيمة المثالية التي توجه النقد هي طبيعيا القيمة نفسها التي توجه الثقافة بأوسع معانيها.

منهج أبي هلال العسكري في الكتاب:

قال أبو هلال في مقدمة كتابه:"جمعت في هذا الكتاب أبلغ ما جاء في كل فن وأبدع ما روي في كل نوع من أعلام المعاني وأعيانها إلى عواديها وشذاذها...و جعلته اثني عشر بَابًا..."[1] وذكر الأبواب كلها، مبتدئا بذكر الأول منها وهو:" في التهاني والمديح والافتخار" وحتى الباب الأخير الذي جعله " في صفات أشياء مختلفة".ثم يقول:"ثم رأيت أصحابنا يشكون طوله وكبر حجمه وبعد غايته فجعلت كل باب منه ينفرد بنفسه ويتميز من جنسه ليخف محمله ويقرب مأخذه..."[2].

و من خلال هذه المختارات التي انتخبها أبو هلال العسكري (شعرية ونثرية) تتأسس ثقافته النقدية، وتتشكل رؤيته المعيارية في الحكم على هذه الاختيارات التي أوردها في كتابه، وهذه الرؤية النقدية لصاحب الكتاب يمكن تحديدها في النقاط التالية:

1)- النقد الذوقي:

من الطبيعي أن تخضع كل المختارات لأذواق أصحابها، فالذوق هو القاعدة النقدية الأولى التي يقوم عليها الكتاب، من خلال حسن الاختيار ودقة التبويب، بل إن هذه الاختيارات قد أبانت عن ثقافة موسوعية يمتلكها الرجل بالإضافة إلى حسه النقدي اتجاه ما يعرض له من ضروب الصناعتين (الشعر والنثر).إذن فالنقد الذوقي نقد مشروع وحقيقة واقعة.[3]

إن ظاهرة الاختيار والتصنيف تلغي عملية الحياد في جمع النصوص وتكشف عن اتحاد الرؤيتين: الإبداعية والنقدية لدى المؤلف من خلال حسن الاختيار ومنهجية التصنيف والتوزيع الجيد لهذه المنتخبات على محاور الكتاب وأجزائه.إن عملية الاختيار ليست اعتباطية، فهي تنمُّ عن قوة كاشفة تسبق العمل وتعين على إنجاز المهمّة النقدية.

لقد حاول أبو هلال العسكري من خلال منتخباته تمثل الذوق العام في تمييز الجيّد من الشعر والنثر مستندا إلى حسه النقدي، ومستعينا في أحيان أخرى بأحكام غيره من النقاد.إذن فحسن الاختيار أو النقد الذوقي هو عمل نقدي متكامل وبالتالي فهو ممارسة عملية أصيلة للنقد الأدبي في صوره المختلفة، وقد قيل قديما "اختيار الرجل وافد عقله"[4]

و لكنّ اختيارات المصنف لم تكن اعتباطية ويمكن للقارئ الحصيف للكتاب أن يدرك ذلك فقد قامت على الأسس التالية:

أ) – قد يكون الاختيار على أساس "جودة اللفظ وبراعة المعنى" كما ذكر ذلك في قولـه: "وقد اخترت أن لا أضمن هذا الكتاب إلا كل جيد اللفظ بارع المعنى".[5]

ب) – قد يكون الاختيار على أساس "جودة المعنى" أو "الإصابة في المعنى" فقط دون اللفظ أو حتى عدم الرصف الجيد للأبيات كما في قوله: "و رصف هذه الأبيات غير مختـار عنـدي ولكني أوردتها لجودة معانيها".[6]

ج) – قد يكون الاختيار على أساس "غرابة المعنى" كما جاء في تعليقه على أبيات أوردها للشاعر ماني الموسوس (أبو الحسن محمد المصري): "و سبكة البيت الأول ورصفه رديء جدًّا لا خير فيه وإنما استغربت المعنى فأوردته".[7]

د) – قد تكون المختارات (شعرية ونثرية) مستهجنة لفظا ومعنى ومع ذلك يقـع الاختيـار، مثال ذلك ما علق به على أبيات أوردهـا في "صفة السدر والطلح": "و إنما أورد في هذا الكتاب مثل هذا الشعر لأن غيري اختارها فأريد أن أدل على موضع العيب فيه ليُـوقَفَ عليه. "[8]

و قد يترك الاختيار لشهرة الأبيات أو شهرة ما قيل في موضوع معين أو باب محدد، كما في قوله : "و لم أجد في تشبيه الورد أبدع مما ذكرته ،و تشبيهه بالخد تشبيه مصيب ولكني تركت الإكثار منه لشهرته وكثرته."[9] أو حينما أورد أبياتا للسموأل بن عادياء في الافتخار بقلة العدد قال:"و هذه قصيدة الافتخار ليس لها نظير وإنما تركت إيرادها لشهرتها".[10] ولكنّ سبب الاختيار هذا قد يبطل في بعض فصول الكتاب، ففي (باب النسيم) وبعد أن يورد باقة من الأشعار المختارة، يعلق في نهاية الفصل: "و لو أردنا استقصاءه-أي هذا الباب- لأضجرنا وأمللنا ولم نأت على ما في نفوسنا منه، والاقتصار على المشاهير والأعيان منه أولى."[11]

نلاحظ- ومن خلال ما ذكرنا- أن اختيارات أبي هلال العسكري، وإن كانت اختيارات ذوقية ولكنها مبنية ومؤسسة على قواعد معينة جعلت صاحبها يميز هذا عـن ذاك وهذا هو أساس النقد.

2)- اللفظ والمعنى:

تُعدّ هذه القضية إحدى المشكلات التي عالجها النقد العربي القديم، وقد هيمنت هذه الثنائية على تفكير النقاد واللغويين والنحويين وعلماء البلاغة وحتى الفقهاء والمتكلمين، وحاول كل واحد من هؤلاء تكييفها حسب منظوره أو اتجـاهه ومحيطه الفكري الذي يستقي منـه.و عموما يمكن القول إنّ "قضية اللفظ والمعنى" قضية ذات طابع استقطابي يمحضّها لأن تكون من المسائل الرؤوس في التراث الفكري

العربي بوجه عام، والتراث النقدي على وجه التحديد."[12] فكيف كانت نظرة أبي هلال العسكري إلى هذه القضية ؟

يقول معلقا على قول أحد الأعراب: "أبلغ الناس أسهلهم لفظا وأحسنهم بديهة" وهذا حسن جدا لأن سهولة اللفظ تدل على جودة القريحة والبلاغة الغريزية، ووُعُورة اللفظ تدلّ على تكلّف وتعسّف ولا شيء أذهب بماء الكلام وطلاوته ورونقه منهما، ولا يحسن معهما الكلام أصلا وإن كان لطيف المعنى نبيل الصنعة."[13]

فسهولة اللفظ إذن شرط رئيس في جودة الشعر، ووُعُورته دلالة على عكس ذلك وواضح من خلال استشهادات المصنف أنه يقيم فصلا بين اللفظ والمعنى فلا فائدة عنده من تكرار الألفاظ فهذا مشين للأبيات وإن كان المعنى حسن جداً، كما هو الحال في بعض الأبيات التي رويت عند العرب في الافتخار بالجود وطيب النفس."[14]

و في صحيفة بشر بن المعتمر:"فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عمّا يفسدهما ويهجّنهما."[15] ويبدو أن الآراء النقدية لبشر بن المعتمر في صحيفته والتي أوردها الجاحظ قد بقي لها تأثير كبير في النقاد الدين جاءوا من بعده.

فالمصنف وبعد أن يورد بيتا من الشعر لابن المعتز في وصف الصبح وهو:

و الصبح يتلو المشتري فكأنّه """ عريان يمشي في الدجى سراج

يقول :" وهذا البيت مضطرب مضمن لا خير فيه والمعنى بارد." [16]

و لا تخرج أراء أبي هلال العسكري في قضية اللفظ والمعنى عمّا تناوله النقاد قبله أو ما هو متداول في عصره مثل قوله:" مختار الكلام أو تكلف اللفظ وابتذاله أو فصاحته إلى الجزالة والسهولة وربما استخدم عبارة أشد قساوة عمّا عرف من قبل حول هذه القضية، حيث قال عن أحد الشعراء المحدثين حول أبيات في وصف الليل : " وقد أبّر على من تقدم على دناءة لفظه."[17]

و مما تجدر الإشارة إليه أن أبا هلال يربط هذه القضية "اللفظ والمعنى " كثيرا بمبحث عند البلاغيين وهو"المساواة " أي مساواة الألفاظ لمعانيها .كيف لا وهو البلاغي الخبير بجودة الكلام وأفانين القول، وكثيرا ما انصبت أحكامه في مختاراته في هذه القضية على النحو المذكور.فقد علق على قول أبي نواس:

فقلت والليل يجلوه الصباح كما ...جلا التبسم عن عُرِّ الثنيّات

بقوله:"و في ألفاظ هذا البيت زيادة على معناه."[18] وحول أبيات أحمد بن زياد الكاتب في "الشيب" يقول :"و في ألفاظ هذا البيت زيادة على معناه"[19]، أما أبيات ابن الرومي التي سبقت أبيات أحمد بن زياد في الموضوع ذاته فقد وصفها"بأنها متوازنة اللفظ والمعنى."[20] وفي أبيات أبي هفان : **يعيرني عري رجال سفاهة *** فعزيت نفسي مصدرا ثم موردا**

بأني مثل السيف أحسن ما يرى* وأهيب ما يلقى إذا هو جُرّدا**

يقول:" وفي ألفاظه فضولٌ لا يُحتاجُ إليها."[21]

3)- السرقات:

هذه القضية لها علاقة وطيدة باللفظ والمعنى، فقد صيغ هذا المصطلح-أي السرقات- من طرف نقاد القرن الثاني الهجري، أما الحاجة التي دفعت إلى هذا اللون من الاهتمام في ذلك القرن هي الانشغال بقضية المعنى التي أثارها الجو الاعتزالي العقلي،ذو صلة وثيقة بتوجيه النقاد حينئذ إلى رصد المعاني المشتركة بين الشعراء وأخذ اللاحق بينهم من السابق،يستوي في ذلك القدماء والمحدثون."[22]

إذن يمكن اعتبار السرقات بأنها النقد القائم على تتبع مصادر المعنى الذي يتناوله أكثر من شاعر، أو تتبع نمو المعنى فيما بين الشعراء، للوصول إلى أي منهم كان أسبق في إبرازه إلى الوجود الأدبي، أو إلى أيهم كان أحسن في تصويره وإخراجه وإن كان مسبوقا إليه."[23]

أما في القرن الرابع الهجري- وهو عصر أبي هلال العسكري- فقد ازدادت هذه القضية حدة، مع تغير كبير في المصطلحات حسب كل ناقد وفهمه لها.فألف المهلهل بن يموت بن المزرّع (ت334هـ) كتابا عن سرقات أبي نواس[24]، كما ألف ابن حمدان الموصلي (ت323هـ) كتابا عاما في السرقات قال عنه ابن النديم:"و لم يتمّه ولو أتمه لاستغنى الناس عن كل كتاب في معناه."[25] فكيف كانت رؤية صاحب"ديوان المعاني" حول هذه المسألة ؟

تعامل أبو هلال مع قضية"السرقات" بتجاهل لهذا المصطلح الذي شاع في عصره ومن قبل كذلك، كيف لا وهو الخبير بالصناعتين (الشعرية، والنثرية) وكان هو نفسه شاعرا وناقدا يقتبس المعاني ويصوبها، وهو يعي بأن اللاحق ربما أخذ عن السابق معناه وحسّنه وزاد عليه، فللأول فضل السبق وللثاني فضل الزيادة.

لقد استخدم أبو هلال العسكري مصطلح (الأخذ) بكثرة مقابل مصطلح (السرقات)، وأحيانا يستعمل مصطلح (تداول المعاني)،كما استخدم مصطلحات (السبق، الإغارة ، الاتباع ، النقل، الإناخة).إن العسكري الناقد المبدع يدرك " أن التأثر قائم لا يمكن إلغاؤه مهما حاول المبدع من ذوي الإمكانات الكبيرة تجنبه فليس في مقدرته الإفلات من آثار السابقين مهما اجتهد ألا تقطع خطواته على خطوات سابقيه، فلا بد أن تتضح الآثار."[26]

و يبدو المصنف من خلال ما يسوقه من أمثلة في هذا الباب ذو ثقافة واسعة أعانته على تتبع مواطن الأخذ في كل شواهده، فقد دل على ذلك في أكثر موضع من الكتاب.[27] كما أكدّ على مصطلح (تداول المعاني) أكثر من مرة وفي عدة مواضع من الكتاب.[28] حتى إذا أراد أن يعنّف في الدلالة حول هذه المسألة استخدم عبارة (الإناخة) كما في تعقيبه على أبيات أبي تمام:" وقد أخذ أبو تمام وصف هذا البيت من ديك الجن وكان أبو تمام كثير الإناخة عليه."[29]

4)- الموازنة:

الموازنة هي تشخيص لمواجهة فنية بين الشعراء [30] أو بين الكتاب والأدباء بشكل عام، "وهي لون من ألوان النقد الأدبي تفصح عن ملكة الناقد وقدرته على التحليل والحكم."[31]

و تتجلى رؤية أبي هلال حول هذه المسألة من خلال ممارساته التطبيقية على الشواهد والنصوص التي يوردها في باب من الأبواب، حول معنى من المعاني أو موضوع من المواضيع عند شاعر أو كاتب أو أكثر سواء كانوا في عصر واحد أو عصور مختلفة (جاهلي،إسلامي،أموي،عباسي).

و يبدو أن سعة الثقافة التي يتميز بها الرجل وكثرة المحفوظ، قد أعانتاه في الحكم على المتناظرين، إضافة إلى الحس النقدي، وهي شروط ينبغي لمن يتعرض للموازنة أن يتوفر عليها. فقد فضل فائية جميل على فائية الفرزدق وقال:"و فائية جميل أحسن وأسلس من قصيدة الفرزدق."[32]

و وازن بين أبيات الأخطل في المديح وأبيات النابغة الذبياني، وانتصر للثاني على الأول.[33] وها هو يعقد مقارنة حول "أجود ما قيل في إخفاء الحركة عند زيارة المعشوق من الشعر القديم" من خلال قول امرئ القيس:

سموتُ إلَيها لَيْلا بعدما نام أهلها * سموّ حباب الماء حالا بعد حال**

ثم يقول:" وأحسن من هذا وأظرف قول وضاح اليمن:

و اسقط علينـا كسقوط الندى * ليلـة لا نـاه ولا زاجـرُ**

و هذا أبلـغ أيضا لأن سقوط الندى أخفى من حباب الماء،لأنّ لسموّ حباب الماء صوتا خفيا ليس ذلك لسقوط الندى.[34]

و قد يوازن بين شعر المتقدمين والمحدثين فينتصر للمعنى الشريف واللفظ القويم ولا يتعصب لأي طرف، وهنا تظهر موضوعية أبي هلال بين جيل من الرواة والإخباريين عرفوا بتعصبهم القديم، وذلك حينما يثني على أبيـات بعض الشعراء المحدثين فـي وصف الليل بل ويؤكد على أنه قد أبر على ما تقدم من الشعر في هذا الوصف حتى شعر امرئ القيس في وصف الليل.[35]

و ربما دبّ حب القديم دبيبا في أحكام أبي هلال العسكري، ولكن ذلك لن يقدح في موضوعية الرجل، فقد صرّح بذلك في موقفين أو ثلاثة فقط، ففي ذكره لبيت الأعشى:

فأنضَيْتُ منها إلى جنة * تدلّت عليّ عناقيدها**

يقول:" ليس لأشعار المتقدمين نظير، وكان بشار يتعجب من حسنه ويقدمه على جميع ما قيل في الشعر.[36] أو حينما تحدث عن أجود ما قيل في الوقوف على الديار قول امرئ القيس(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) يقول:" وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع ، فليس له شبيه في جميع أشعارهم."[37] وما عدا هذه النماذج فالكتـاب يخلو من هذه النـزعة الجدلية (بين القديم والجديد) فـي جـانب الموازنـات والمفاضـلات، ويوضح نظرة العسكري الموضوعية في هذا الجانب.

5)- الطبع والتكلف:

الطبع في الشعر هو الموهبة في كتابته، وهو العفوية وعدم التكلف في الممارسة الشعرية شريطة أن توافق هذه الموهبة صدق التجربة، وظاهر اللفظ ومدى ملاءمته لمضمون الكلام، كفيل بأن يجعل الشاعر على سكة المطبوعين أو المتكلفين.

يقول أبو هلال العسكري حول هذه الفكرة:" إن سهولة اللفظ وحسن البديهة يدلان على جودة القريحة والبلاغة الغريزية، ووعورة اللفظ تدل على تكلف وتعسف ولا شيء أذهب بماء الكلام وطلاوته ورونقه منهما ولا يحسن معهما الكلام أصلا وإن كان لطيف المعنى نبيل الصنعة."[38] وفي موضع آخر من الكتاب ، وبعد أن يستهجن ما استحسنه غيره من الرواة لبيتين من الشعر للشاعر العباسي الصنوبري يقول:" ... وهما بالاستهجان أولى لا لرداءة معناهما ولكن لتكلف ألفاظهما، وليس

التكلف أن تكون الألفاظ غريبة وحشية، بل وقد يكون الكلام متكلفا وإن كان ظاهر اللفظ، إذا لم يوضع في موضعه وخولف به وجه الاستعمال."[39]

أورد أبو هلال قول السري الرفاء وقال بعده معقبا:

و نيلوفر أوراقه الخضر تحته * سباطٌ إليه الأعينُ النجلُ شُخّصُ**

و هذا البيت مختار الرصف ظاهر التكلف.[40]

و في أبيات (علي بن العباس النوبـختـي) في رجل اعتَلّ:

طـال فكري تعجبا لمصوّغ * ذهبا كـان يقبل الأقذاءَ**

و الحسام الهذاد يزداد حسنا * كلما زاده الصقال جلاءَ**

يقول بعدها:"... والبيت الثاني أصلح من الأول والبيت الأول متكلف جدا."[41]

من خلال كلام العسكري وتعليقاته على الأمثلة التي يوردها، يبدو أن التكلف عنده متعلق بصعوبة الألفاظ وعدم التوفيق في اختيارها ووضعها في موضعها الملائم، حتى وإن كانت المعاني سليمة والسبك جيّد.يستوي في ذلك الشعر والنثر، فرسالة (قابوس بن وشمكير) التي أوردها ورغم علُوّ معانيها، إلا أن ذلك لم يشفع لصاحبها أمام نظرة أبي هلال النقدية المتفحصة، فقد انتقد بعض ألفاظها ووصفها بالمتكلفة.[42]

الحكم ذاته ينطبق على بعض أشعار ابن طباطبا العلوي، ورغم أن أبا هلال معجب بشعره، ولكنه تحامل عليه أكثر من مرة حيث التكلف ظاهر في شعره، ووصفِهِ له بأنه كالمسن يشحذ ولا يقطع.[43] وقد يتدخل لإصلاح تكلّف ظاهر في لفظ أحدهم كما صنعه مع أبي هفان الشاعر.[44]

أما إذا استسهل شعر أحد الشعراء وأعجب بألفاظه، خاصة إذا كانت في موقعها من النص، أو موقعها من نفسه، فهو يصف الشعر إذا بالمطبوع، فقد وصف شعر محمد بن إبراهيم اليزيدي بأنه مطبوع مختار.[45] وامتدح جريرَ قائلا:" وكان جرير قليل التنقيح مشرّد الألفاظ."[46]

6)- المبالغة والاعتدال:

و هذه القضية مرتبطة أشد ارتباط بالطبع والتكلف " فقاعدة الطبع هي المتحكمة في الإبداع وهي أمارة الاعتدال والاقتصاد، أما الصنعة فأمارة الغلو والإفراط."[47]

أما إذا أردنا البحث في جذورها الفكرية فلا يستبعد أنها مرتبطة بأصول فكرية دينية أقرّها الإسلام اعتمادا على مبدأ الوسطية والاقتصاد في كل شيء فلا إفراط ولا تفريط، هذا ما أكد عليه أحد الباحثين يقوله:" إن مفهوم العرب للإبداع قائم على توخّي(الاقتصاد) وتجنب الإفراط الذي وقع فيه بعض المحدثين، كما أنها مرتبطة بقاعدة المقدار وقد نـُهي عن كل شيء جاوز المقدار ، وقاعدة المقدار كذلك مرتبطة بقاعدة دينية هي قاعدة (الوسطية) وجوهرها الاعتدال في كل شيء ومجانبة الغلو في الدين ومسألة المنزلة بين المنزلتين ونبذ التكلف وتنـزيه كلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الصنعة والتعبّد للمعاني."[48]

و كان أبو هلال مدركا لهذه الحقيقة في قضية (المبالغة والاعتدال) وبنى أحكامه النقدية على أساسها، فقد أعاب على امرئ القيس قوله في وصف الليل (وليل كموج البحر أرخى سدوله) بعد أن وصفها بأفصح الكلام وأبرعه ... إلا أنه دخل في باب الغلو.[49] الحكم نفسه انطبق على أبيات النمر بن تولب في مضاء السيف:

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نَمْرٍ *** أسْبَـادَ سيفٍ قديـمٍ أثرُه بـادِ

تظلُّ تحْفِرُ عنه إن ضَرَبْتَ بـهِ ***بَعْد الذراعينِ والسَّـاقينِ والهادِي

و هذا من الإفراط والغلو وهو عند بعضهم مذموم إذا كان في هذا الجمود عند آخرين ممدوح.[50] كما انتقد الغلو والإفراط في الشعر، انتقده في النثر كذلك.[51]

و ربما كان الغلو مستفيضا مشهورا فرضيت به العامة والخاصة واستحسنوه ورَوَوْهُ في كل ناد كحال بعض أبيات أبي تمام في مدح المعتصم، حتى إن أبا هلال تعجب ممّا استحسنه الناس في بعض أبيات أبي الطمحان القيني على غلُوّها.[52]

7)- أقسام الشعر:

قسم أبو هلال العسكري الشعر حسب أغراضه وفنونه فقال:" كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي حتى زاد النابغة قسما سادسا وهو الاعتذار فأحسن فيه ولا أعرف أحدا من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحتري فإنه قد أجاد القول في صنوفه وأحسن وأبلغ ولم يذر لأحد مزيدا حتى قال بعضهم هو في هذا النوع النابغة الثاني."[53]

هذه النظرة تتفق مع ما ذكره أبو هلال نفسه في كتابه الآخر " الصناعتين" حول الأغراض الشعرية حيث قال :" ولما كانت أغراض الشعر كثيرة ومعانيه متشعبة جمّة لا يبلغها الإحصاء، كان من الوجه أن نذكر أكثرها استعمالا، وهو المدح والهجاء والوصف والنسيب والمراثي والفخر، وقد ذكرت قبل هذا المديح والهجاء وما ينبغي استعماله فيهما، ثم ذكرت الآن الوصف والنسيب، وتركت المراثي والفخر لأنهما داخلان في المديح."[54]

أسقط العسكري في كتابه (ديوان المعاني) غرض الفخر الذي ذكره في (الصناعتين) وأضاف إلى الأغراض السالفة غرض الاعتذار، والظاهر أن تقسيماته للشعر بحسب الأغراض في تصحيح مستمر بحكم القراءات المتعددة الواردة في نصوصه ، وإن كنا لا نعلم على وجه التحقيق أسبقية التأليف في كتابيه (ديوان المعاني) و(الصناعتين).

و يبدو أن أبا هلال قد انتصر لرأيه في تقسيم الشعر حسب أغراضه المذكورة معضدا إياه برأي ذلك الأعرابي الذي سئل عن أشعر الناس فقال: جرير وذلك أن بيوت الشعر أربعة: المديح والهجاء والافتخار والغزل وفي كلها سبق لجرير."[55] بينما يقر بأن غرض التهاني لم تعرفه العرب، وغن كانت بعض الكتابات فهي داخلة عند النقاد في عموم المديح، وكأن أبا هلال العسكري أراد أن يستحدث- نظريا – قِسما جديدا أو غرضا جديدا فألمَح إليه وسكت.

8)- النقد اللغوي:

النقد اللغوي في أوضح تعريفاته هو القدرة على تلمس موطن الصحة والخطأ والجمال والقبح في النص الأدبي سواء في اللفظة المفردة أو في التركيب الكلي على وفق مواصفات اللغة وسننها مع التطور الذي يطرأ في لغة النص على اختلاف العصور.[56]

و انطلاقا من أهمية اللغة وجه أبو هلال إليها جهده واهتمامه باعتبارها عماد الفن الأدبي ومادته الأصيلة اعتمادا على آليتين مهمتين:

الأولى: التفسير والشروحات اللغوية.

الثانية: تصويب ألفاظ وعبارات مخالفة لما تواضع عليه العرب على مستوى الاستخدام الدلالي والمجازي.

و كثيرا ما شرح المصنف في كتابه " ديوان المعاني " النصوص وفسرها تفسيرا لغويا دقيقا في أحيان ومستفيضا في أحايين أخرى، وهذا ما دل على معرفته التامّة بدلالة الألفاظ العربية ومختلف التراكيب والأساليب اللغوية وسنن العرب في كلامها.

أما من ناحية التفسير اللغوي فقد تم على مستويين:

الأول: تفسير الغريب من الألفاظ.

الثاني: تفسير المقصدية (الشرح العام للشواهد شعرية ونثرية فقد فسر بيتا شعريّا لحسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه:

يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم *** لا يسألون عن السواد المقبل

يقول: قد أنست كلابهم بالزوراء فهي لا تنبحهم وهم من شجاعتهم لا يسألون.[57]

ويفسر مرة أخرى أبيات بشار بن برد وبعض أبيات الحطيئة حتى يستقيم المعنى في ذهن القارئ.[58]

وقد يغلّظ في أسلوبه حين يجد لفظه في غير موقعها، فحينما يذكر قول أبي تمام:

و كشفت لي عن صفحة الماء الذي *** قد كنت أعهده كثير الطحلب

ثم يردف معلقا: " إنما قال (عن جلدة الماء) فقال إذا أمكن أن يصلح قصيدته بتغيير لفظة فمن حقها ومن حق قائلها أن يغير وبين الصفحة والجلدة بون بعيد.[59]

و ما دام الرجل لغويا فما يمنعه أن يمر على تفسير بعض آيات القرآن من الناحية اللغوية، فقد وقف وقفة تفسيرية لقوله تعالى: (أفرأيتمُ النّار التي تُورُون) إلى قوله تعالى:(نَحْنُ جَعَلنَاهَا تَذْكِرَةً ومَتاعًا للمُقْوِين) شارحا الآيات الكريمات شرحا لغويا، وفسرها تفسيرا وافيا.[60]

و يدخل في دائرة النقد اللغوي ما يسمى بالنقد النحوي، مثلما صنع حينما فسر بيت جرير: ألستم خير من ركب المطايا *** وأندى العالمين بطون راح.

يقول:"وليس هذا الاستفهام للشك، وفي القرآن الشريف" أليس الله بعزيز ذي انتقام" "أليس الله بأحكم الحاكمين" "أليس الله بكاف عبده" وربما أورد نقدا نحويا لغيره وجعله موضع تعليق على أحد اختياراته حينما استشهد بقول ابن هبيرة في تعليقه على الأبيات الشعرية.

9)- الرواية والتوثيق:

استغرق كتاب "ديوان المعاني"أكثر من ستمائة صفحة حواها جزءان، وقد ضم الكتاب ككلٍّ مرويات عديدة- كما أسلفنا- شعرية ونثرية، لعصور مختلفة؛ من فترة ما قبل الإسلام مرورا بعهد النبوة وخلافة الراشدين فالعصر الأموي والعباسي الأول والثاني.

و شيء طبيعي أن تتفاوت هذه المرويات في الصحة والنسبة قوة وضعفا، ولابد لأبي هلال أن تستبين رؤيته حول هذه المسألة من خلال استخدام بعض آليات الرواية والإسناد وضبط ما لحق بها - أي الرواية - من تصحيف وخلط وتحريف وتحقيق في نسبة النصوص إلى أصحابها، ولِمَ لا تصويب ما اعترى بعض المرويات من أخطاء طالتها شكلا ومضمونا.

فالمسألة لها جذورها القديمة في التراث النقدي العربي، طرحها ابن سلاَّم قائلا:" وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه..."[61]. فالوضع والانتحال في الشعر إذن ظاهرة بشرية طبيعية، ليس بوسع أحد أن ينكرها لأن الشعر يحمله رواة، وهم بين ثقة صادق، يثق الناس في صدق روايته، ويطمئنون إلى أمانته، سعيا وراء هدف يرمي إليه[62] على اختلاف الأهداف، فكيف كانت رؤية أبي هلال لهذه القضية؟.

أ) - الرواية بين الشك والترجيح:

قد يعتري بعض مرويات الكتاب بعض الاضطراب فيدع أبو هلال الرواية تتأرجح بين روايتين حسب ما سمع من شيوخه، أو ما رُوي من القديم، ففي بعض الأبيات الشعرية يقول:" وقريب منه قول عمر بن أبي ربيعة وروي لغيره."[63] أو في حديثه عن بعض الأبيات:"وروى بعض الرواة للنابغة وروي لسعيد."[64]

و قد يَروي خبرا أو أبياتا بصيغة التعجب حتى تحُمل له الرواية على وجه الشك، ففي إيراده لقصّة "حول الحلم" تضمنت أبياتا شعرية يقول:" ومن عجيب ما روي في الحلم ما أخبرنا به أبو أحمد..."[65] وقد تعترض له روايتان في خبر واحد فيحقق النسبة ويعزو المتن لصاحبه أو لغير ما روي على وجه اليقين، ففي باب " أجود ما قيل في المهابة" من قديم الشعر ما ينسب للفرزدق وهو لغيره * في علي بن الحسين - رضي الله عنهما- :

يُغضي حياءً ويُغضي مِن مهابته * فما يكلّمُ إلا حين يبتسمُ**[66]

ب) – الإسنـــاد:

أبو هلال العسكري من العلماء الثقات من حيث الحفظ والرواية، فلم يُعرف عنه غير ذلك عند كل من ترجموا له، وعلى هذا الأساس فقد كانت أغلب منتخباته مُسندة وقد يبلغ الإسناد عنه أجيالا من العلماء والرواة، يقاربون ثمانية أو أكثر.[67] وقد يبلغ شيوخ أسانيده خمسة ولو في رواية بيتين من الشعر،[68] وربما وصل إسناده إلى النبي - صلى الله عليه وسلم- فروى الحديث.[69]

ج) – الرواية بين الزيادة والنقصان:

قد يروي أبو هلال الخبر بزيادته أو نقصانه على حسب محفوظه بدون تعليل ففي قصيدة بشار بن برد، الميمية التي هجا فيها المنصور رواها بثمانية عشر بيتا، وعلق عليها: هذا ما أورده أبو هلال العسكري وفي بعض الكتب زيادة في هذه القصيدة وهي ذكر ثلاثة أبيات.[70]

د) – شعر الجن وذكر الأساطير:

شكّل شعر الجنّ وبعض المرويات الأسطورية العربية القديمة جزءًا من التراث العربي" فالنصوص الشعرية المنسوبة إلى الجن لا خلاف على الشك في نسبتها، وعلى ذلك ينظر إليها باعتبارها مجهولة القائل ينبغي البحث عن قائلها الحقيقي... أو النظر في أصليتها."[71]

يقول العسكري حول هذا الموضوع:" ويُروى عند العرب كذب كثير فمن ذلك ما يزعمون أنهم يرون الجنّ ويكلمون الغيلان والسعالى، حتى زعم تأبط شرا أنه طلب نكاح السعلاة في قوله... وذكر أبياتا له وللشاعر عبيد بن أيوب ولشاعر آخر حول هذه المرويات الأسطورية، ثم أكملا قائلا:" وكان كثير من شعرائهم يدّعي أنّ له شيطانا يعلمه الشعر منهم الفرزدق كان شيطانه أبا لُبينى وذكر أنه ذهب إلى جبل فناداه فجاء مثل الذباب فدخل في حلقه فقال قصيدته التي أولها (**عَزَفْتَ بِأعْشَاشٍ ومَا كِدتَ تَعزف**). وزعموا أن عروة بن عتبة صرخ بقومه فأسمعهم من مسيرة ليلة، ورووا أنّ لقمان بن عاد لمّا ضعف بصـره، كان يفصل بين الذكر والأنثى والذر إذا دبَّ على الصفا في الليلة الظلماء."[72]

و واضح من أسلوب أبي هلال العسكري أنـّه مبطل لتلك المرويـات الأسطوريـة والخرافية من خلال استخدامه لبعض الأساليب (زعموا- يروى كذب –

حتى زعم ...) كيف لا وهو العالم الأديب الناقد النحرير الذي يحكّم عقله مضافا إلى ذوقه فلا عجب أن يخرج برأي سديد في هذا المجال.

هذه أهم القضايا التي طرحها أبو هلال العسكري في كتابه " ديوان المعاني" والتي كوّنت باتحادها رؤية نقدية ميّزت صاحبها. ولكن بقي أن نشير إلى نقطة مهمة وهي أنّنا تعمّدنا إقصاء القضايا البلاغية من هذه النظرة النقدية، رغم أن الرؤية النقدية قد اتّحَدت مع البلاغية عند نقاد هذه الفترة، وأبو هلال واحد من الذين مزجوا الرؤيتين معًا في كتابه" ديوان المعاني" وحتى في كتاب "الصناعتين" مثل حديثه عن الإيجاز والتعمية، وجماليات الاستعارة والإصابة في التشبيه وغيرها من القضايا البلاغية التي تستحق دراسة مفردة مستقلة لا تسعها صفحات هذا البحث.

الإحالات

1 - أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، ج1، ص14،7.
2 - المصدر نفسه: ص 14 .
3 - محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر ط6- 2007م ،ص16.
4 - ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر دت، ج1، ص2.
5 - أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، ج1، ص179.
6 - المصدر نفسه:ج1، ص292.
7 - المصدر نفسه: ج2، ص283.
8 - المصدر نفسه: ج2، ص43،44.
9 - المصدر نفسه:ج2، ص23.
10 - المصدر نفسه:ج1، ص83.
11 - المصدر نفسه:ج2، ص48.
12 - أحمد الودرني: قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن 7 هـ/12م، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ط1-2004 م، ج1، ص110.
13 - ديوان المعاني: ج2، ص81
14 - المصدر نفسه:ج1، ص81.
15 - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الفانجي، القاهرة مصر، دت، ج1، ص136.
16 - ديوان المعاني: ج1، ص358.
17 - المصدر نفسه:ج1 ، ص348.
18 - المصدر نفسه: ج1 ، ص356.
19 - المصدر نفسه:ج2 ، ص157.

20 - المصدر نفسه:ج1 ، ص80.
21 - إحسان عباس:تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة بيروت لبنان ط4 دت، ص70.
22 - طه مصطفى أبوكريشة: النقد العربي التطبيقي، مكتبة لبنان ناشرون بيروت لبنان ط1 -1997 ،ص70.
23 - إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص131.
24 - الفهرست: تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ط2، 1997م، ص 183.
25 - عبد السلام محمد رشيد: لغة النقد العربي القديم بين المعمارية والوصفية حتى نهاية القرن السابع الهجري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة مصر ط1 - 2008م ، ص54.
26 - ديوان المعاني: مثال ذلك ما ورد في الصفحات التالية: ج1، ص17/ ج1، ص108/ ج1، ص317.
27 - المصدر نفسه: ج1، ص20،21/ج1، ص124/ج1، ص187.
28 - المصدر نفسه: ج1، ص56.
29 - عبد السلام محمد رشيد: لغة النقد العربي القديم بين المعيارية والوصفية، ص50.
30 - ثائر عبد الزهرة لازم البصير: أمالي المرتضى بحث في المنهج والنقد والتأويل دار الينابيع، دمشق سوريا ط1 - 2009، ص240.
31 - ديوان المعاني: ج1، ص78.
32 - المصدر نفسه: ج1، ص27،28.
33 - المصدر نفسه: ج1، ص 225،226.
34 - المصدر نفسه: ج1، ص348.
35 - المصدر نفسه: ج1، ص244.
36 - المصدر نفسه: ج2، ص148.
37 - المصدر نفسه: ج2، ص81.
38 - المصدر نفسه: ج1، ص322.
39 - المصدر نفسه: ج2، ص28.
40 - المصدر نفسه: ج2، ص167.
41 - المصدر نفسه: ج1، ص88.
42 - المصدر نفسه: ج1، ص345/ج1، ص338.
43 - المصدر نفسه: ج1، ص80.
44 - المصدر نفسه: ج2، ص171.
45 - المصدر نفسه: ج1، ص353.
46 - أحمد الودرني: اللفظ والمعنى في النقد العربي، ج2، ص849،848.
47 - المصدر نفسه: ج2، ص850.
48 - ديوان المعاني: ج1، ص346.
49 - المصدر نفسه: ج2، ص51.
50 - المصدر نفسه: مثال ذلك، ج1، ص76/ ج2، ص41.
51 - المصدر نفسه: ج1، ص24.
52 - المصدر نفسه: ج1، ص92،91.
53 - نقلا عن محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، ص325.
54 - ديوان المعاني: ج1، ص31.
55 - عبد السلام مجيد: لغة النقد العربي القديم، ص14.

56 - ديوان المعاني: ج1، ص32.
57 -المصدر نفسه: ج1، ص33/ص38.
58 - المصدر نفسه: ج1، ص353.
59 - المصدر نفسه والصفحة نفسها.
60 - المصدر نفسه: ج1، ص286،287.
61 - طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، شركة القدس القاهرة مصر، ج1، ص4.وكذلك حول هذه القضية في الكتاب نفسه :ج1، ص 7،8،46 ،47 ، 48.
62 - شوقي رياض أحمد : شعر السيرة النبوية (دارسة توثيقية) دار المأمون للطباعة والنشر ، الجيزة، مصر، ط1 - 1987، ص178.
63 - ديوان المعاني : ج1، ص122 .
64 - المصدر نفسه: ج1، ص46.
65 - المصدر نفسه: ج1، ص135.
* الأبيات للحزين الكناني يمدح بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وينظر بالتفصيل حول نسبة هذه الأبيات ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، تحقيق : أحمد محمود شاكر، دار الحديث، القاهرة، مصر، طبعة 2006 م، ج1، هامش الصفحتين : 65، 66 .
66 - المصدر نفسه: ج1، ص143.
67 - المصدر نفسه: ج1، ص118..
68 - المصدر نفسه: ج1، ص122.
69 - المصدر نفسه: ج1، ص118/ج1، ص150.
70 - المصدر نفسه: ج1، ص137.
71 - شوقي رياض أحمد : شعر السيرة النبوية (دراسة توثيقية)، ص268 .
72 - ديوان المعاني : ج1، ص112، 113.